

مميزات بنى أمية

سیداتی ، آنساتی ، سادتی

فضل بنى أمية على قربس :

لو حاول باحث أن يتحدث إليك في موضوع ميزات بنى أمية حتى يصور لهم صورة تامة في الجملة لاحتاج إلى بعض محاضرات ، ولكن ملا يدرك كله لا يترك جله . قال النسابون وأصحاب السير والتراجم : إن أمية تصغير أمة ، والأمة الملعونة ، والنسب إليها أموي بضم الهمزة فاما من قال أموي بالفتح فقد أخطأ . وبنو أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبيهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومن اسماه صن في الجاهلية مثل العزي واللات ومناة وود وسواع وينوث ويغوث ونسر ، وأمية الأكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف ووالده حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنايس أي الأسود . ومن ولده العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأعياص ؛ وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما أكرم عبده وهم آباء وأعمامه وأخواته وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصي^(*) هـ الذين يذهبون في التجارة إلى البلاد المجاورة . يحمل هاشم الآلاف لرؤسائه القبائل ، والآلاف العهد وشبه الإجازة بالخلافة ، وهو عبارة عن شيء

(*) محاضرة القاتل الأستاذ محمد كرد علي في ١٤ كانون الأول عام ١٩٣٩ .

من الرابع ، ويحمل لهم مع ذلك متابعاً مع ذلك متاعه ويسوق اليهم إبلأ مع إبله ، ليكتفهم مؤونة الأسفار ، ويكتفي قريشاً مؤونة الاعداء فكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . والى هذا الإيلاف الاشارة في سورة قريش : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من حوف) والمعنى أنه تعالى من " على قريش بما آتتهم عليهم من الإيلاف الذي به كانوا يشارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من أصحاب الفيل الذين جاؤوا من الحبشة الى اليمن يستولوا على البيت .

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غزة ، وبه سميت غزة هاشم وبها مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ونوفل الى فارس ، وبعد شمس الى أكسيوم من ارض الحبشة . فبني أمية هم الذين هيأوا أسباب التجارة لقريش وأنقذوهم من الفضوب ، أي من أخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً . وأدخلوا مكة في طور مدني بعد أن كان عيش أهلها معقوداً بقبطيات السيف وأسننة الرماح ، و بهم عرفت قريش في أرض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنوا عبد مناف هم الذين كانوا اذا يؤلفون الجوار ويبحرون قريشاً بغيرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجبرين ، والعرب تسمهم أقداح النمار لطيب أجسامهم وكرم فعاظهم .

قطة أبي سفيان بن حرب :

وكان أبو سفيان (محمر بن حرب) - والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وأم حبيبة وجبرية - تاجرًا عظيماً يجهز التجار بالله وأموال قريش الى الشام وغيرها من ديار المجم ، وكان يخرج أحياً نفسه ، وكانت اليه

زيارة الرؤساء التي تسعى العقاب . وإذا حبست الم Harm اجتمعت قريش فوضعتها يد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاية . وقد أبو سفيان قريشاً كلها يوم أحد ولم يقدرها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويوم نكيف وقيل ذي نكيف وفقة كانت بين قريش وبين كنانة بناحية يعلم من نواحي مكة . فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب أمرها عبد المطلب أو المطلب . وأبو سفيان كان يوم أحد ويوم الأحزاب رأس من حاربوا الرسول . وما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمين عليه الطريق فابلل بلاه حسناً حتى أفقد أموال التجارة ، وكانت تقدر بخمسين ألف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم أكرمه الامراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبى الشام ضيعة يقال لها يقنتس . وكان في الحاچلية هو وعتبة وأبو جهل أفضل الناس رأياً .

حارب أبو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، أول الدعوة ، أن ينزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل أن معاوية ويزيد أسلماً قبل أبيها ، وكذا عنه اسلامها ، وكذلك ابنته أم حبيبة واسها رملة زوجة الرسول أسلمت قبل أبيها . وكانت تحت عبید الله بن جحش ، هاجرت معه الى أرض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أمية الصعرى الى التجاني فخطب عليه أم حبيبة فزوجها إيه ، وأصدقها التجاني من عنده عن رسول الله أربعين دينار . وزار أبو سفيان ابنته أم حبيبة لما قدم المدينة لعلم الرسول أن يزيد في هدنة الحديبية ، ودخل على ابنته فاراد أن يجلس على فراش النبي فطوطه دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش ثني أم بي فراش النبي فطوطه دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش ثني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وانت أمرت بمحبس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو وأولاده من المؤلفة قلوهم يعطفهم الرسول من القتام والأموال ما يتألف به قلوهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يا رسول الله انه (أبي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حرب مع رسول الله يوم حنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنته زيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، ينصر الله اقترب وكان يقف على الكراديس يقص " أي يقف أمام سرايا العسكر ويمطر ؛ والقاسم الداعية .

بِيَرْنَاءُ بْنِ أُمِّيَّةَ :

وتطور أبو سفيان لما أسلم ، وأخلص في اتحاد الدين الجديد ، كما كان خلصاً من قبل في دينه القديم ، وأبدى براعة حرية في الاسلام كان يدعي منها في الجاهلية . قال أبو سفيان للنساء الالاتي مع المسلمين يوم اليرموك - واليرموك النهر الذي كانت عنده الواقعة الفاصلة بين العرب والروم وبها فتح الشام كله جنوبه وشماله - وكان كثير من المهاجرات حضرت يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن أحد من المسلمين إلا رميته بهذه الحجارة وقتلن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام وأهله ، وعن النساء وهن أمام العدو . ولما حي الوطيس واستقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين أخذن بضربي وجههن بعد البيوت أو بعد الفساطيط ويرميهم بالحجارة ويقلن : أين أين عز الاسلام والامهات والازواج .

كان النساء بي أمية وغيرهن مثل جويرية ابنة أبي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ومثل أم حكيم بنت

الحرث بن هشام ، وهذه قاتلت سبعة من الروم في صحر الصفر بمود الفساطط وكانت عروساً والخلوق على جسمها تبعث رائحته - كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك ما يذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى ساقن الرجال ، وكان النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المغاربين ، وجلب الماء اليهم ، وغسل نيازتهم ، وتضميد جراحهم ، وغريض مرضاه ، وغير ذلك مما تعلمه اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهم في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي أرباضها كثير من رجال بي أمية صرعي ، لكثرة ماعنوا من الجناد في فتحها . وتدرب زيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والإدارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسرى العرب . وعقد أبو بكر في خلافته لزيد بن أبي سفيان ، وكان يقال له زيد الخير مع امراء الجيوش الى الشام وقال : ان اجتمعتم في كيد فزيد على الناس ، وان تفرقتم فلن كانت الواقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وشيءه الصديق راجلاً وهو راكب وجعل يوصيه ، ولما مات زيد في طاعون عمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في الشام أوف من الصحابة وغيرهم ، ضم عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه زيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . أما زياد ابنه الثالث فكان زيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . من أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين أنبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب فقال زياد : أعن عجز عزتي يا أمير المؤمنين ألم عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن احمل على العامة فضل عقلك .

من بي أمية على العرب ونورهم

ولقد كان لا في سفيان وأبيه حرب منه عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك بنقلها الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً

في الحجاز ، فاتئنا بهذا أن ينتمي النبي مصطفى حضارة أيضاً ، ولا أحد رجال بي أمية منه أخرى في الإسلام تُعد عظيمة جداً في بابها ، وهي أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان جمع القرآن ، فنسخه من المصحف وأرسل المصحف التي كتبت منه إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وأبقى عنده مصحفاً سنه الإمام ، ولو لا عمله الحميد لضاع بعض آيات الكتاب العزيز لاعياد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان بعض الصحابة يحفظون مالا يحفظه غيرهم ، فإذا اتفق أن مات أحدهم يخشى أن يضع ما كان يحفظه .

وكان أمير المؤمنين عثمان يكرم حرمته بن منذر الطافى ، وكان شاعر أنصارياً يعلم بسير ملوك العرب . وأنى أمير المؤمنين معاوية بأمره بأبد الحضرمي وبعبد الله بن شربة الحضرمي من اليمن يقصان عليه أخبار ملوك العرب والجم ، وأمر بتدوين ما كان يورثان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الإسلام ، واستتصق معاوية كعب الأحبار لكتبه عالمة ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عاديه أخي السموءل بن عاديه من يهود الحجاز . وحفيده معاوية خالد بن زيد ، وكان يدعى علم قريش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخيه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب وال الحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الإسلام ، والغالب أنها كانت في دمشق . وأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الاموي هو الذي دون الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب ليتفع به الناس .

ولو لم يكن بي أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ما وسد لهم الرسول الولايات والأعمال العظيمة ، وقد انتقل إلى جوار ربه وأكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما

استطاع الخليفتان الأولان أبو بكر وعمر أن ينتفعاً بما أسرمه الرسول من ذلك والوظائف الكبرى توسيع في الدول لن يوق بغيرهم ، ويعرفون روح الدولة أكثر من غيرهم ، والإدارة يبرع فيها المتمردون عليها ، وينمو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانت كذلك في الإسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كباراً عن كبار .

ميرات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب إلى الشام مررة فلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الإبهة التي أصطنعها فقال : إننا في بلد لا ينتفع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فإن أمرتي به أقتلت عليه ، وإن نهيت عن انتهي ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أن معاوية أقنع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا رى إلا الخشونة لنفسه ولعاليه ، بتقليد الروم في ظاهرهم . وما حاد معاوية عن الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الإدارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضتها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنها مما كان عند الأمم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فاخرج الإدارة بذلك من سذاجة البداوة إلى بمحبحة الحضارة . ما كان معاوية يصدر إلا عن مشورة ولا يأْتَنَ في إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاءة من أهل بيته غالباً ، ويستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، وكان له منهم مجالس أشبه ب المجالس التواب والشيخوخ ، وب مجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود ، واستخدم النصارى في صالح الدولة ، فكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يلعنوا ، فبعد أن سر جون بن منصور ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بإدارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانبطاط

والجراجة والعمجم وغيرهم من المناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولة بما تقام به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

وما يعرب عن سعة عقله وأنه عمل في جميع حالاته لا يبالى بالفشل والفالواهر من أوحى إليه المقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أنساماً من ذهب مكللة بالجواهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها إلى البصرة ومنها إلى الهند اتباع فيها لأنه رأى يعها قائمة أكثر ثمنها ، ولم يبال انتقاد المترمذين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وأدخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الأبيهم سيدبني غسان — لما هرب إلى الروم لأن عمر أراد أن يقتلها بن قتلها — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع إلى الإسلام ، يريد بذلك أن يتلاقي مأفعى من عمر في ذلك ويقوى الإسلام به . وبتحليل سياسته أخرج الخلافة من آل علي إلىبني أمية وأخذها من الحسن بن علي بحال دفعه إليه ووعود وعده بها . وكانت بذلك عام الجماعة أي اجماع المسلمين على إمام واحد .

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التي يصلى فيها الخليفة متفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه إذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني أن يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسيع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر إلا المتطوعة يبحرون برئام غير مكرهين . ولما جاء الخليفة الثالث انطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص الف وسبعين سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرق في طرابلس بأيدي أناس من صناع

الروم ، وكانت روم القسطنطينية في خوف من أسلوشه في البحر ، كما يحبون ألف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في أصول الروم

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخار الإصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله أبداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطايه وأرزاقه ، ووقت أوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو أول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهزه بكل ما يلزم ، وجعل الجندي لا يستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من أجناد الشام جيش خاص به من أهل الأقليل الذي يتألف فيه ، والجند هو ما نسميه بالفرنسية Le gouvernement militaire فهن جند دمشق ، إلى جند الأردن ، إلى جند فلسطين ، إلى جند قنرين . وأهم ما كانوا يهتمون به المرابطة على الحدود والثغور الفريدة من أرض الروم . ولطالما أدهش معاوية الروم بصدقه كأنه يهزم بوقاته ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في يعلبك ، فقدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رهائن وأخل سبيلهم وقال : وفاء بقدر خير من غدر بغيره .

ومعاوية أول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهافين الفرس فعرفتهم ما يريد فوضعوا له البريد واتخذوا له بناً بإكاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الإسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الاليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال له ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل

كذا بيهاله فسيه وعياله ، فإذا فرغ من هذا القبيل أتى الديوان حتى
ثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحدهي السكان ولا يغونه حجر المتنقلين في
ربيع بلاده .

وكان لمعاوية أنواع من السياسات برز فيها حتى عد من أعظم سامة
العرب . كان لا يولي إلا السيد الموسد في قومه ، ويستعمل القلوب بالمعطاء
أو بالاقناع أو بالاغتساء ، فإذا لم تنجع هذه الوسائل وتوجس شرًا من
أغضى عنه ورضاه فلم يفلح عمد إلى القسوة ، وكان يقول لا أضع سيفي
حيث يكفيني سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بيبي
وبيين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : إني لا أحول بين الناس وبين
آلسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين سلطانا . أي أنه يطلق للناس حرفاً لهم فإذا
جاؤوا إلى أخمار القوة أذاقهم بأمسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة
للغلوين والهاشين فإذا لامه أحد على هذا البذر أجابهم إن الحرب تستلزم
نفقات أكثر من هذا المعطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده زيد : أعملى
عبد الله بن جعفر أربعة آلاف الف فقيل له : أنمطي رجلاً واحداً هذا ؟
فقال : ومحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أحجمين فما يده إلا عارية .

واستخدم معاوية القصاص الدعالة السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات
يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وهذه الدعابة لم تكن زمان النبي
ولا زمان حاجييه أبي بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الإمام من سلاة
الصبح جلس فذكر الله وحده ويتقددوصل على نبيه ، ودعا لل الخليفة والأهله والأهله
يته وجنوده ، ودعا على أهل حربه . واستخدم أيضًا الشعراء الدعاة ،
وزين لهم الدعوة إلى التفاخر بالقبيلة والأيام المشهورة ، وأخرج الشعر من
المجاه بعض الشيء ، وكان الشعراء في الدهر الغابر كأرباب الصحف في
المدينة الحديثة يتعلون في عقول الناس بشعرهم ، خصوصاً إذا كان الشاعر
فحللاً مقلقاً . أما الخطابة فكان جميع أهل خطباء ، وقد كانت قوادهم

ورجالهم كذلك خطباء أبنينا . وخطب زياد وعقبة والحجاج من أبلغ
ما يؤثر عن خطباء العرب .

ابراج معاوية

كان معاوية يخرج عماله في الادارة ويعدهم إليها بالعمل ، ولا يعتمد
إلا على العظام والدهاء أمثال عمرو بن العاص والمغيرة . وكان من عادته إذا
أراد أن يولي رجلاً من آله بني حرب ولاه الطائف ، فإن رأى منه
خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قياماً
حسناً جمع له منها المدينة ، فكان إذا ولـي الطائف رجلاً قبله هو في أبي
جاد ، فإذا ولـاه مكة قبله هو في القرآن ، فإذا ولـاه المدينة قبله هو
قد حذق .

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها أنه رأى النصارى كثرة
غامرة في الشام فـما أحب اجلادهم ؛ وما رأى من السياسة تركهم وشأنهم ،
ائلاً يستعين بهم الروم على الفاتحين ، فنقل إلى الساحل قوماً من زطّ
البصرة والسيابحة وأنزل بعضهم أنطاكية ، ونقل قوماً من فرس بعلبك
وحص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور ، ونقل من أساورة البعرة
والكوفة (الأسورة قوم من العجم بالبصرة كالأخامر بالكوفة) وفرض
بعلك وحمص وأنطاكية جماعة . وأسكن حصن سفيان الذي بناء على
أميدال من طرابلس ، جماعة كثيرة من اليهود ، وأسكن الشام كلـه جمورة
من القبائل العربية من جهم باعـلـها الأصـلـيين ، فاصـبـحـ السـاحـلـ كالـدـاخـلـ في
هذه الـديـارـ غـاصـاـ بالـعـجمـ والـمـرـبـ وبالـسـوـدـ والـبـيـضـ وبالـمـلـدـينـ والنـصـارـىـ والـيـهـودـ .
رأـيـ مـعـاوـيـةـ أـنـ أـرـضـ الحـجـازـ فـاحـلةـ ، يـعيـشـ أـهـلـهاـ فيـ شـطـفـ منـ
الـعـيشـ ، عـلـىـ هـذـاـ كـانـواـ مـنـذـ أـقـدـمـ عـصـورـ التـارـيخـ ، وـلـاـ جـاءـ الـاسـلامـ
وـفـتـحـ الـبـلـادـ وـكـثـرـ الـأـمـوـالـ فـرـضـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ الـمـعـطـاءـ ، فـاصـبـحـ

الناس يعيشون من عطائهم ، وكان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم وفي الاسلام دخل الممتازون في أعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلاً ، على ما قيل به حكيم بن حزام امر ، فترك قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطا وبلغت التجارة ، لا تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

حتى معاوية أن هلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم - موسم الحج - او على صدقات المسلمين ، فعن في جملة ما يعني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحترف الآبار لتسقيا ، وأقام سدوداً تخزن المياه والامطار ، فعانت الحجاز من أرضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أسرته على قدمه في هذا الباب مما أبطلت عمله بل تعهدته وعنته . وتسلسل الفكرة مائل في بنى أمية يتم الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، ولا ينفعه ولا يغيره . وأعظم ما فاز به معاوية أن رعيته من أهل الشام كانت تحبه مجده عظيمة ، وبهم ورأي زناده ووصل الى أهدافه وكتب له النصر على أعدائه .

بِنَيَّاتُ بْنِ أُمِّيَّةَ

ما سمع في دولة بنى أمية أن يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرام في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيها لايتع لهم من شؤون الرجال ، ولذلك أوصى المنصور ابنه ألا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهاباته . وكان من آثر تغيير الدم العبابي واتخاذ أمبات أولاده من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤمرات في قصور الخلفاء ، وأصبح قتلهم من الامور المعتاد وقوعها ، وكانوا - اذا استثنينا منهم المنصور والرشيد والأمون والمعتصم وأثنين أو ثلاثة من المتأخرین من خلفائهم - الى ذل "ليس بعده ذل" ، وأكثراهم أشبه بثانية طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا ي Emerson ، وبشرون الحرب ويعقدون الصلح ، وأحكامهم نافذة في القافية والدائمة .

رعا يمترض على هذا بان الوليد بن يزيد من الامويين قد قتل أيضاً ، والغالب ان قتله كان بسبب تحليه عن اليمانية لا لفسقه ولا لسوءه كما اتهموه ، وهذه اتهمة اذاعوها ليبرروا ائم الامة مقتله ، أما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزن والتفوى والمعلم ليل نهار على صالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولا تقدر القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى أت الخليفة الذي جار عليه التاريخ - وتاريخ بني أمية كتبه أعداء دولتهم بعدهم ، كاشاهد الأهواء السياسية - وتعني به أمير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجحاج ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها أعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا أمر بقتله ، وما جاءه خبر مقتله اصطارب ولعن قائله ، فلتحذر أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلمة حجة على الخطمن يزيد وآل يزيد .

عمران ادسو بين وتأثيرهم الربفيه والمدينه

ومما امتازت به دولة بني أمية غرام رجالها بالمعران ، فقد أقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتصدير الأسمار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الحجامع الاموي بدمشق وقصر الحير الذي اكتشف في البادية وحي خروذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدينة الباهرة قال أحد دهاقين خراسان اماماً من بني أمية (والدهقان رئيس الاقايم) إنكم بغير الآيوانات في المقاوز ، فيجيء الجنائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عبيداً إلا أن يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بني .

اما ما قامت به دولتهم في المغرب من الاعمال العظيمة على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل وآل بيته فعاد به بحور آباءه بعد أن قضى العباسيون

محمد كرد علي

٢١٩

في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا نغالي اذا قلنا ان ثلث مائة لامر بمن حضارة قام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثانان الآخران قاما في بغداد ودمشق والعواصم الأخرى كصر ونهاجر وشيراز والري وأصفهان وغزنة .

وبما عرف به الامويون من مرونة سياسية وادارة حكيمه رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في اقاضيه من دون مادعاية ولا يثير مبشرين ، وامتد ملوكهم الواسع في بلاد يبلغ مساحتها نحو ثلاثة أربع مساحة اوروبا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعين فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه . وفي عهدهم دخلت في الاسلام امم كثيرة من السلاطين السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلاطنة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلاطنة الارية (الفرس واليونان والاسبان والهند) والاهاند او المنداك رجال الهند ، ومن السلاطنة التورانية (الترك والتار) وكانت تقام شعارات الاسلام ويقرأ القرآن في قرطبة وفاس كا تقام الصلوات في السندي وسرقدن ، وتختلف العناصر المختلفة في الموسم بعكة ، وفهم الاسود والاحمر والاصفر والابيض تجتمعهم جامعه الاسلام والطاعة لبني أمية . وأصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر أهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الامويين تعد شيئاً بين العواصم والمحواضر ، ودك العباسيون ملام عمراها عندما فتحوها خلافة أن ينسب الامويين شيء من الحسنات تذكر الناس بمحنة وهم أفس ، وقضوا على كل أمر لهم على نحو مافعل التار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عصمه ملوكهم وقضوا على الخلافة العباسية .

فضائله قوار ادسو بين وعمالهم

وما كان خلفاء بني أمية فقط يمتازون بأمور يفردوا بها على من سواهم

بل كان رجالهم وقوادهم لا يشبهون في هذا الماء عمال بي العباس .
فإن عمال العباسين كانوا يستغلون لافتتهم على الغالب ، وعمال الأمويين
يستغلون لدولتهم ، فقد رأينا الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً يعمل كل
ما يجب أن يعمل لدولته ورأينا أحد بن طولون في الدور العباسي الثاني
يعلم لنفسه أولًا ثم لدولته ، وكان عمله لنفسه عظيمًا جدًا لم يؤثر بعضه
عن عامل من عمال بي أمية . وعلى ما ظهر من تعصب الأمويين ، وكانوا
لا يوسعون الولايات إلا للعرب ، ولا يؤمّنون على سياساتهم إلا للعرب ،
كانت تراث في المسائل الأخرى أنجوبة في تساهليهم . آخذ بعضهم عبيد الله
ابن زياد لاعتقاده على الفرس في مسائل الاموال فقال مدافعاً عن نفسه :
كنت إذا استعملت العربي كسر الخراج ، فإن أغرتت عشراته أو طالبته
أوغرت صدورهم ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت
الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفق بالأمانة ، وأهون بالطالبة منكم ، مع أني
قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً .

وما كان يخلو قائد من قواد الأمويين من مزايا غريبة تدهشك في جملة
ما تدهشك من سيرته ، فقد اشتهر الحجاج مثلاً على عظيم سياساته بأمور
لا يخطر بالبال أن مثله يفكر فيها ، اشتهر بصلاح المواريث والخارج والزراعة
ووضع الحركات والاعجمان في المصاحف ، إلّا بلتبس شيء من الآيات على
من لا يعلم القرآن وانخدع دار الضرب لسك النقود فكان يضرب المال
للسلطان بما يجتمع له من التبر وخلافة الزيوف والستوقة والبرجة ، ثم
أنزل التجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان
يؤخذ من الاجرة لصناعة والطباعين وحتم أيدي الطباعين . وهو أول من
أجرى في البحر السفن المقيرة المسمرة غير المفرزة والمدهونة وغير ذوات
الجاذبية . (واحدتها جوزج و هو الصدر او عظامه شهوا به مقدم السفينة)
وكان أول من عمل الحامل ولم يرض عن عمله هذا بعض الرجائز الـ كرياء فقال :
أول عبد عمل الحامل لا أجزاء ربي عاجلاً وآجل

وكان من زياد بن أبي سفيان مثل ما كان من الحجاج : بي في البصرة
دوراً وأحياء ومساجد وحقر ترعاً وأنهاراً وكل ما بي فيها أو صنع فانه نسب
إلى غيره . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع
الذرة ، وحططهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلاح العراق بأهل العراق ،
ترك أهل الشام في شامهم ، وجيء العراق مائة ألف الف وعافية عشر
الف الف . وهذا عتبة بن أبي سفيان أخوه معاوية وأخطب رجل في بي
أميمة كان يطفيء الفتنه بسلامته أكثر مما يطفئها بجهش دولته . وهذا موسى
ابن نصیر فاتح الأندلس ما التوى له علم منذ خرج من مصر في جيش
ضليل حتى وصل إلى الأندلس ففتحها ، وإذا قرأت مرجنته بامان يقولون
مي ان الولادة ما ولدت أعظم منه ولا أعقل .

ومن المتعدد في ساعة حقيقة كهذه أن يتناول الكلام على رجال الفوم
ونذكر بعض مالهم من المزايا النادرة ، ونحن لذلك نكتفي بالإشارة إلى
واحد منهم ، وكل واحد من رجالهم يحتاج إلى دراسة خاصة مشبعة ،
ونعني به مسلمة بن عبد الملك . فقد كان على جانب عظيم من العقل والسياسة
والعلم والادب . غزا الروم غير مرّة وأنجح فيهم . وفتح الأمهات من
مدائنهم ، وتولى الاعمال الجليلة ومنها العراقيان وأرميسيه ، فابن في كل مكان
عن كفالة منقطعة النظير وعن حب للخير غريب في بايه ، وأوصى بجزء
من ماله عظيم لأهل الأدب قائلاً إنهم أهل صناعة حفوة . ولو لا انه
ابن أمة لكان من المتخم أن يجعل على عرش الخلافة الأموية كسائر
أخوته الاجلاء الذين يضوا وجه التاريخ الاموي والاسلامي بعلمائهم الجليلة .

التisper بين الأمويين والعباسين

حكم الأمويون في الشرق ألف شهر ، وحكموا في الغرب نحو ثلاثة
قرون ، وكانت في الشرف والغرب يحررون جداً في الاموال لا يأخذون

ال الخليفة مala محل . وكان مما جرت به عادة خلفائهم اذا جاءتهم جيارات الامصار ان يأتهم مع كل جيارة عشرة رجال وأحياناً أربعون رجالاً قساماً من وجوه الناس وأجتادها فلا يدخل بيت المال من الحياة دينار ولا درهم حق بخلاف الورق ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه وانه فضل اعطاءات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه ، أي فضل اعطاءات الاجتاد وفرائض الناس . وكانوا لا ينقولون مالاً من بلد الى بلد حتى تسد ثغرة وخصوصاً أهلها بما يغتربون ، فما فضل منه نقوله الى البلد الآخر الذي يليه .

أما جيارة العباسين فكان فيها الطاهر وغير الطاهر ، وأنواع ضرائبهم كثيرة ، لذلك كان ينكر الخراج ويكثر عيش العمال وعيتهم بها . ومائده عند الامويين نزول خليفة عن أقاليم أو عن قطار لعامل من عاليه ، يحييه على هواء الحياة الحاس ، ويمهد الى من يريد بتوليته عليه ، ويكتفي الخليفة حفظه الله بالخطبة له والدعا له ولداته وبوضع اسمه على السكة وكانت هذه الطريقة مبدأ تزريق دولتهم وفض عرى كلتهم وفي أيام بي العباس كثرت المصادرات ، وكان يصدر العمال كما يصدر الرعية ، ويصدر كل من عرفت له فروة بلا رحمة ، ومنهم من كانوا يعذبون أنواع التعذيب ليس لهم نعمتهم ، ومنهم من هلكوا في العذاب ، ومثل هذا الجور قلم ما عهد في دولة بنى أمية ، ذلك لأن عالم طبقة مختارة يكونون من أصحاب الشرف وأرباب البيوتات من العرب ، وقل ان عهدت السرقة في شريف . وما ذكر بتاريخ ان قائد اموياً أو وزيرأ صودر على مال ، كما كان يصدر قواد العباسين وولاتهم وزراوئهم ؛ ولا سيما في الدور العباسي الثاني ، والباب عبد الملك في تنظيم ميزانية الدولة المثل الاعلى وموازنته خير موازنة عرفت . تم الى هذا كانت الاخلاق على العموم في العصر الاموي أرق مما آت اليه في العصر العباسي ، كان في عمال الامويين الصحابة والتابعون

وتبعوا التابعين وكاظم عاية في فهم روح الدين ، والبعد عن الصغار والسفاف . ودخل في عمال العباسين أخلاق الزمر ، ومنهم من لا يعرف أبوه ولا أمه أوصلته المصادفات الى المأرب المالية ، ومنهم من أظهر الاسلام وأجهض حلاله ، كبعض الاركان والفرس ظلوا في باطنهم على عبادة الكواكب أو عبادة البيران .

سر نفوذ الامويين

الذكاء يورث وينتقل بالدم ، والعلم لا يورث لانه خاص بدارسه ، وابن الذكي على الاعلاب ذكي ، وابن البليد بليد على الاكثر . كذلك كان الناس في كل زمان يجعلون الرجل المناسب الى جد كان له شأن عظيم في الحياة مالا يجعلون مثله لرجل عادي كان لاحد أسلفه ثي ، من المكانة ، والدم الطاهر يتم على صاحبه ولا يكذب رائده . وكان البشر منذ القديم يقول بالوراثة عرقها من طريق عملي لا من طريق علمي ، وكان للعرب في باب تغيير البنات الاصيلات غرام شديد منذ أزمنة تارixinهم وما زالوا على ذلك الى اليوم ، حتى كادت الامة العربية تعدد في هذا المعنى ارستقراطية مع أن أسمائها كلها تدل على تأصل الديموقراطية في ديارها ، ولذلك رأينا بعض مؤلفي الترجم يحرصون على وضع نسب المترجم له من جهة أهل أبيه وأمه ، وبهذا ساع لما نستنتج بأن بي أمية لم يظهر مظاهر منهم من الصفات الغر في الجاهلية والاسلام الا بددم تقى انتقل من الاجداد الى الاحفاد ، وسلسل العقل والذكاء في رجالهم ونسائهم ، وانتقلت الشجاعة والنجدة في بناتهم وبناتهم . وفي الحديث : الناس معدن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا .

ارباب الراغبة الى التنوء بالامويين

لا أريد أن أودعكم الآن قبل أن أفتحكم بأمر طالما افط به بعضهم

وما أجبتهم عليه ، ذلك أن بعض المترفين عن بني أمية يتهمون بالتشييع لهم ، واني أنه في كل فرصة بمحسنتهم ، وأغض الطرف على ما يتخيله المتخللون مسيئات ، واني المحى على من ظلمون وما رحومهم ، وما حجي الامويين ، علم الله ، الا حب من انم النظر فيما قبل فيهم ولهم ، ووازن بين أعمالهم وأعمال غيرهم ، وأيقن بعد الدرس الطويل والتفكير العميق أنهم مغبونون في الحكم عليهم . سواد خصومهم من العباسين والعلوين صحيقهم في الدهر القابر لأجل السياسة حتى صار بعضهم الى اليوم مذهبها يدين به من يدين . ويلغى عن العراق في نهضته الحديثة انهم قلما يقرؤون في المدارس تاريخ بني أمية لبعض بعض الطوائف لهم ، وهذا من أغرب ما يسجل في تجاهل المعروف ، وعدم الاقرار بالأمر الواقع .

ان حكمي على الامويين حكم التاريخ فقط ، أرغب في أن أنصف دولة أحسنت ولم يبق في الأرض انسان ينسب إليها حتى أقرب من قلبه بما دون ، ولو كانت المسألة مسألة حظ نفس كان الاولى بي أن أصانع بمنفسيهم وهو ملايين اليوم منتشرون في أقطار العالم ولهم حتوٌ وطتوٌ . فالمسألة اذاً ليست مسألة حب وبغض بل مسألة حق وباطل وأقبح بالتاريخ يكتب بعوامل مذهبية وشهوات نفسية وأهواء شخصية .

مناد شوفي لمروء مورين

ورحم الله صديقي شوفي يذكر الامويين في قصيدة الخالدة في دعشق قوله :

بنو أمية اسلامناه ما فتحوا
وللامحاديث ماسادوا وما دانوا
كانوا ملوکا سرير الشرق تحتم
فهل سأله سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها
في كل ناحية ملك وسلطان
يا وبح قلبي منها انتاب أرمهم
سرى به لهم أو عادته أشجان

بالآمس قلت على (الزهرا) أندبهم واليوم دمعي على (الفيحا) هنان
في الأرض منهم مساوات وألوية ونيرات وأنوار وعقبات
معدن العز قد مال الرغام بهم لو هان في ربه الإبريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة مررت بالمسجد المهزوت أسأله هل في المصلى او الحراب مروان
تغير المسجد المهزوت واختلفت على المنابر أحرار وعبدات
فلا الآذان آذان في مثارته إذا تعالي ولا الآذان آذان